

اتجاهات الأدب

وأهم حواضره في العصر العباسي (١)

بقلم محمود البسيبي

المدرس بدار العلوم

٢

لقد ظلت (بغداد) ضئيلة بمكانتها العلمية والأدبية متشبثة بأهدابها ، حتى بعد غلبة الترك والديلم على خلفائها ، ويرجع ذلك إلى عوامل عدة ، منها وجود بعض الوزراء والعظماء الذين استوطنوها ، وكانت لهم مشاركة في العلم والأدب ، وسابقة فضل فيها ، وحذب على المشتغلين بهما .

ومن أولئك (الوزير المهلب)

وهو الحسن بن هارون ، ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة وزير لأحمد بن بويه الديلمي سنة ٣٣٩ هـ . وكان وزيراً عفيفاً ، حسن التصرف ، ذائع المكارم ، جم الفضائل ، محباً للعلم والأدب ، قال أبو إسحاق الصابي (من كبار الكتاب في الدولة العباسية) مشيراً إلى ما عرف به ذلك الوزير من الزهد والنسك وتقدير نعمة الله عليه :

نعم الله كالوحوش فما تأ (م) لف الا الا كابر النساء

نفرتها آثام قوم وصير (م) ت لها البر والتقى أشراكا

كان الوزير المهلب قبل الوزارة رهين معيشة ضنك ، جواب آفاق ، على طريقة فقراء الصوفية حدث عنه « أبو علي الصوفي » فقال :

كنت معه في بعض أوقاته أماشيته ، فضجر لضيق حاله وقال :

ألا موت يباع فأشتريه ؟ فهذا العيش مالاخير فيه !

(١) راجع المقال الأول (ص ٣٩-٤٥) من العدد الأول من السنة الثانية من الصحيفة.

ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه
ثم تصرف الدهر بما يرضيه ، فدخلت البصرة واجتزت « بسر من رأى » ،
وإذ أنا بناشيطات وحرافات وزيارب وطيارات ! في عدة وعدد ، فسألت لمن
هذا ؟ فقليل للوزير المهلبى ، ونعتوا إلى صاحبى فوصلت إليه حتى رأيته ، فكتبت
إليه رقعة ، وتوصلت حتى دخلت ، فسألت وجلست حتى خلا مجلسه ، فدفعت إليه
الرقعة وفيها :

ألا قل للوزير بلا احتشام مقال مذكر ما قد نسيه
أتدكر إذ تقول اضيق عيش : ألا موت يباع فأشتره
فنظر إلى وقال نعم ، ثم نهض معى إلى مجلس الأنس ، وجعل يذاكرنى ما مضى
ثم أقبل ثلاثة من الغلمان ، على رأس أحدهم ثلاث بدّر ، ومع الآخر نخوت وثير ،
ومع الثالث طيب وبخور ، وأقبلت بغلة رائعة بسرجه ثقيل ، فقال يا أبا على :
تفضل بقبول هذا ، ولا تتخلف عن حاجة تعرض لك ، فشكرته وانصرفت ، فلما
هممت بالخروج أشدنى على البديهة :

رق الزمان لفاقى ورثى لطول تحرقى
وأنا لى ما أرتجى وأجار مما أتقى
فلأغفرن له الكثير من الذنوب السبق
إلا جنايته التى فعل المشيب بمفرق
وللوزير المهلبى شعر حسن ، مرتبك بعضه . ومن كلامه فى الغزل ولوعة الفراق :
قال لى من أحب والين قد جدّ م وفى مهجتي لهيب الحريق
ما الذى فى الطريق تصنع بعدى ؟ قلت أبكى عليك طول الطريق
وقال فى الوصف والتمك بملوك تركى قلده (معز الدولة ابن بويه) إمارة
جيش لحرب بنى حمدان ورأى فيه المهلبى عدم الكفاية لهذه المهمة :

طفل يرق المثل فى وجناته ويدق عوده
ويكاد من شبه العنذا رى فيه أن تبدو نهوده
جملوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

ومن رقيق شعره في الغزل :

تصارمت الأجفان لما صرمتي فما تلتقي إلا على عبرة تجرى
وكانت وفاته عام ٣٥٢ هـ فمات بموته خير كثير ، ورثاه أبو عبد الله الحسين
ابن الحجاج فقال :

يا معشر الشعراء ، دعوة موجع لا يرتجى فرج السلو لديه
عزوا القوافي بالوزير فإنها تبكى ، وما بعد الدموع عليه
مات الذي أمسى الثناء رداه والعفو عفو الله بين يديه
هدم الزمان بموته الحصن الذي كنا نقر من الزمان إليه
فليعلم بنو بويه أنه فجعت به أيام آل بويه
بمثل هذا الوزير حفظت للعربية بهجتها ، وللآداب بشاشتها ، وإن تقلص
عن (بغداد) نفوذ السادة من بني العباس ، ولقد جرى على سنة المهلبى في حب
العلم والآداب وزير آخر لآل بويه هو بهاء الدولة ، سابور بن أزدشير ، كان من
أكبر الوزراء ذاك كفاية ودراية . وكان بابه محط رحال الشعراء ، عقد أبو منصور
الثعالبي ، في « يتيمة الدهر » باباً مستقلاً لمدايح الشعراء التي قيلت فيه ، فمن ذلك
قول أبي الفرج البغدادى المتوفى سنة (٣٩٨) :

لمت الزمان على تأخير مُطَلِّبى فقال : ما وجه لومي وهو محظورُ
فقلت لو شئت ما فات الغنى أُملى فقال أخطأت ، بل لو شاء (سابور)
لذ بالوزير أنى نصر ، وسل شططا أسرف ، فإنك في الإسراف معذور
وقد تقبلت هذا النصيح من زمي والنصح حتى من الأعداء مشكور
ومن عناية هذا الوزير بأمر العلم أنه أنشأ في (الكرخ) خزانة كتب حافلة ،
جمعت ما كتب بخطوط الأئمة ، من المؤلفات النادرة القيمة ، وكانت وفاته سنة ٣٣٦ هـ
ومن عنا بنصرة الأدب في عهد السلاجقة الوزير (نظام الملك الغازي
وزير ملك شاه السلجوقي) أنشأ المدرسة النظامية ببغداد وحبس عليها كل سنة
خمس عشرة ألف دينار ، وكان بها ستة آلاف متعلم يتناولون الطعام ، وأجرى على
مدرسيها الأرزاق الكافية ، وحاطها بكل ضروب العناية ، وتخرج فيها كثير
من أفاضل العلماء والأدباء .

وبعد فلن استطاعت (بغداد) أن تثبت بعظمتها الأدبية في تلك الآونة التي وهنت فيها حبال الخلافة، لقد أعانها على ذلك ما انبت فيها من ديار العلم والحكمة، وأندية أولئك الوزراء والعظماء المشغوفين بالأدب، وما خلعه الدهر عليها من ثياب المجد والعراقة، حتى ما برحت تهوى إليها أفئدة الشعراء والأدباء والعلماء، وإن تناثرت حولها حواضر الأوطان السياسية التي نشأت في الدولة شرقاً وغرباً، بضعف الخلفاء وتحكم الأتراك فيهم منذ أواسط القرن الثالث.

على أن هذا لم يحل دون ارتحال كثير من الأدباء عن (دار السلام) سعيًا في طلب العيش، واستجابة لرغبات كثير من زعماء تلك الحواضر الناشئة، الذين أرادوا ألا يقصروا عن شأو أمراء بغداد في كل مظاهر العظمة، ومن أسمى تلك المظاهر تراحم الشعراء والعلماء على أبوابهم.

فكان من آثار هذه الحال أن كثرت اعتزاز العلماء إلى أوطانهم، بعد ما كانوا ينتسبون غالباً إلى قبائلهم، فأصبح الناس يسمعون بكثير من هؤلاء، كالطبري والبخاري والبخشري والرازي والنيسابوري والبلخي والبغدادى والدمشقي والمصري والقيرواني والمغربي، إلى غير أولئك. وقد كانت ألقاب العلماء أيام ازدهار (بغداد) تشير غالباً إلى قبائلهم أو صناعاتهم، إذ كانت جهرتهم بجمعة في (بغداد) فكان منهم: المازني والحيري والزجاج والفراء وغيرهم.

يحصل هذا (لبغداد) منذ منتصف القرن الثالث ثم يحصل مثله أو مقاربه لمدينة (قرطبة) منافسة (بغداد) بعد نحو قرنين، فبعد ما كانت مهبط العلماء والأدباء ومقصد النابهين منهم كأبي علي القالي زمن الخليفين: (عبد الرحمن الناصر) وولده (الحكم بن عبد الرحمن)، وبعد ما كان هم أمراءها منافسة المشرق وعاصمة المشرق (بغداد)، عدت عليها عوادي الزمن فاحتلت عرا الدولة الأموية الثانية في الأندلس بتغلب ملوك الطوائف عليها عام (٤٢٢ هـ).

وقد نشأ مما عرا (بغداد وقرطبة) ظهور مدن أخرى حظى بعضها بكثير من المظاهر الأدبية والعلمية، بعض هذه المدن في الشرق وبعضها في الغرب، وإليك الآن كلمات موجزة عن أهم هذه الحواضر، ولنبدأ بالحواضر الشرقية:

فمنها (أرجان) وهي مدينة من بلاد ركن الدولة بن بويه المتغلب على بلاد الرى وهمدان وأصفهان. كان بهذه المدينة ذلك الوزير العظيم والكاتب المبدع (أبو الفضل بن العميد) فكان مقصداً لكل أديب كاتب كان أو شاعراً، أمة الأدباء والشعراء من أقاصي البلاد فوجدوا في ظله نعيماً وافراً وعيشاً رغداً ومكاناً علياً، فصارت أرجان في زمنه موطن العلم والأدب وكعبة العلماء والأدباء، وحسبك في بيان فضل ابن العميد أن أصبح رب طريقة مختارة في الكتابة العربية حتى قيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

وحسبك أن يؤمه زعيم الشعر في ذلك الوقت أبو الطيب المتنبي، وهو المغالى بنفسه التباه بشعره، فيلقى عنده من الحفاوة ما أطلق مدحه لسانه، وما جعله وهو زعيم الشعر يسبغ على أبي الفضل من الصفات ما يجعله واحداً عصره ونسج وحده. كان لابن العميد بفضل دماثة خلقه وسعة حلمه وكثرة جوده وحسن محاضراته أثر كبير في جذب الأدباء إلى ساحته، وكان إلى جانبه ذلك الكاتب الأديب الطائر الصيت (الصاحب بن عباد) الذي بلغ من ثقته بنفسه وتزاحم الأدباء على مجلسه أن كان لا يستقبل أديباً يحفظ أقل من عشرين ألف بيت من شعر العرب، حتى قيل إن أبا بكر الخوارزمي قدم عليه فأعلمه الحاجب بذلك فقال الخوارزمي: سل مولاك، أيريدها من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما دخل الحاجب على الصاحب وأخبره بذلك قال: هذا يكون أبا بكر الخوارزمي! وأذن له وأنزله منزله وبالحق في الحفاوة به.

إن دولة يكون من أمرائها عضد الدولة، ويكون من وزرائها (أبو الفضل ابن العميد) وصاحبه (ابن عباد) لجديرة بأن تكون ملاذ الأدب في إبان محنته، وأن مدينة يكون فيها (ابن العميد والصاحب) لهى درة في عقد المدائن، ولقد عرف الأدباء لها هذه اليد الطائفة، فأطالوا في مدحهما، وأذاعوا من مآثرهما. هذا، ولما مات ابن العميد حزن عليه (الصاحب بن عباد) أشد الحزن ومر بداره يوم فلم يرف فيها من كانوا يتزاحمون على بابها فجاشت نفسه بالأسى وقال: أيها الربع لم علاك كتاب؟ أين ذاك الحجاب والحجاب؟

أين من كان يفرع الدهر منه ؟ فهو الآن في التراب تراب ؟
ولما مات (الصاحب بن عباد) رثاه أبو سعيد الرستمي فقال :
أبعد ابن عباد يَهْشُ إلى السرى أخو أمل أو يستأجر جواد ؟
أبى الله إلا أن يموتا بموته فما لها حتى المعاد معاد
هكذا كان وزراء آل بويه كوزراء بني العباس من البرامكة وآل وهب في
طليلة الأدياء ، وكانت ديارهم مثابة العلم ومقصد العلماء .

ومن تلك الحواضر (بخارى) و (نيسابور) اللتان نما العلم وازدهر في
جنابتهما على يد الدولة الساسانية ، التي قامت بما وراء النهر (من سنة ٢٦١ إلى سنة
٣٨٩ هـ) وفي هاتين المدينتين أنشئت أقدم المدارس الإسلامية . وقد امتاز من
ملوك هذه الدولة (منصور بن نوح) وولده (نوح بن منصور) وكان (نوح) هذا
متعصباً للأدب الفارسية حتى اقترح على شاعره (الدقيق) أن ينظم تاريخ الفرس
وماثرهم ، فأخذ في نظم «الشاهنامه» ، وكان على ذلك التعصب ميالاً للعلم ،
واستخدام العلماء ، حتى إنه لما سمع بشهرة (الصاحب بن عباد) وزير آل بويه ،
حاول أن يجتذبه إليه فيجعله من خاصة دولته ، ومناه الأمانى الواسعة ، ولكن
وفاء الصاحب ، أبى عليه أن يفارق أولى نعمته ، فاعتذر بكثرة كتبه وصعوبة انتقاله ،
لأن هذه الكتب كما قال الصاحب ، تحتاج في نقلها إلى أربعمائة بعير . وكان الملك
(منصور الساماني) لا يقل عن أسلافه حباً للعلم ، واحتفاءً بالعلماء ، فألف له
أبو بكر الرازي الطبيب كتابه «المنصورى» - في الطب - . وإن ملوكاً ذلك ديدهم
في نصرة العلم لا شك تكون ديارهم مثابة العلم والعلماء وموطن الأدياء والفضلاء .
ومنها مدينة (جرجان) قاعدة الدولة الزيدية التي ملكت من سنة ٣١٦ إلى
سنة ٣٣٤ هـ ييلاد (طبرستان)

كان من ملوكها (شمس المعالى قابوس بن وشمكير) وقد عرف هذا الملك
بالعلم والأدب ، وصفه (الثعالبي) في كتابه «يتمية الدهر» فقال : أنا أختم هذا
الجزء بذكر خاتم الملوك ، غرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن جمع
الله له إلى عزة الملك بسطة العلم ، وإلى فضل الحكمة فضل الحكم . يريد بهذا

(شمس المعالي قابوس) ويروى لهذا الملك شعر رقيق العبارة ، رائق المعنى ،
فنه :

خطرات ذكرك تستثير مودتي فأحس منها في الفؤاد ديبيا
لا عضولى إلا وفيه صباة فكان أعضاء خلقن قلوبا
وقوله :

قل للذى بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلامن له خطر؟
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا ومستنا من تمدى بؤسه ضرر
ففى السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسيف إلا الشمس والقمر
ومن تلك الحواضر (غزنة) قاعدة الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند ، ومن
أجلاء ملوكها السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند ، الملقب بيمين الدولة ، كان
مجلسه أهلا بالعلماء والأدباء والشعراء ، ولم يمنعه من تشجيع الأدب حبه لأجاء
الآداب الفارسية ، فهو الذى أمر شاعره (الفردوسى) بإتمام ما بدأه (الدقيقى)
من نظم « الشاهنامه » ، فأتىها ، وكان هذا الملك العظيم مولعا بحشد العلماء فى عاصمة
ملكه ، لا يسمع بعالم نابه الذكر إلا استدعاه وقربه إليه . كتب إلى أمير
(خوارزم) كتابا يطلب منه أن يرسل إليه من سمع بوجودهم عنده من كبار
العلماء كالبيرونى الرياضى وابن سينا الطبيب ، وقال فى كتابه : أرسلهم إلى ليتشرفوا
بمجلسى ونستفيد بعلمهم .

هذه أهم الحواضر الأدبية فى جهات المشرق . وسنعرض فى المقال التالى بعون
الله إلى ذكر الحواضر الأدبية فى جهات المغرب .

محمود البسيبى